

قراءة النص الديني عند مالك شبل

بونمورة جعفر

¹مؤسسة الانتماء للمؤلف الأول ، جامعة قسنطينة

djafer.bounemoura@univ-constantine2.dz

ORCID iD Link (<https://orcid.org/0000-0002-8862-6951/>)

مرمي سهام

¹مؤسسة الانتماء للمؤلف الثاني ، جامعة باتنة

Sihem.marmi@univ-batna.dz

ORCID iD Link (<https://orcid.org/0000-0002-4643-6091/>)

استلم: 2026-07-21، مقبول: 2026-07-24، نشر: 2026-07-29

ملخص:

تتجدد أسئلة فهم الدين في كل مرحلة تاريخية تبعا للتحويلات الفكرية والمعرفية التي يعرفها الإنسان، وضمن هذا الأفق يبرز فكر مالك شبل في قراءة النص الديني من خلال دراسة تصوره لطبيعة النص القرآني وآليات تأويله في ضوء التحويلات المعاصرة. كما نجد شبل ينظر إلى القرآن باعتباره نص غني بطبقاته الدلالية، يجمع بين المعنى الظاهر والمستويات الرمزية العميقة، مما يجعله قابلا للتأويل المتجدد لذلك اعتمد في قراءته على توظيف أدوات معرفية حديثة بهدف الكشف عن الأبعاد الثقافية والإنسانية للنص، ولا سيما في تعامله مع القصص القرآني بوصفه بناء رمزي يتجاوز وظيفته التاريخية المباشرة. كما أبرز مالك شبل مكانة التفسير في قراءته للنص الديني إذ لم يعتبره عائقا أمام القراءة المعاصرة، إنمارأى فيه رصيد معرفي ومنهجي ضروري لفهم القرآن وسياقاته. فقد أكد أهمية جهود المفسرين وعلى رأسهم الإمام الطبري، في بناء قواعد الفهم والتأويل مع رفضه في الوقت نفسه للتأويل القائم على الرأي المجرد الذي يفصل النص عن أصوله اللغوية والتاريخية والعلمية. وتكمن خصوصية مشروعه في محاولته الجمع بين الانفتاح على المناهج الحديثة والحفاظ على الصلة بالتراث التفسيري الإسلامي، إذ جعل من التراث أساسا للحوار والتجديد، لا موضوع للإلغاء. وبذلك يقدم نموذج لقراءة معاصرة للنص الديني تقوم على التفاعل بين النص والتفسير والعقل الإنساني، بما يسمح بإعادة فهم القرآن في ضوء قضايا العصر دون فقدان ارتباطه بسياقه المعرفي والتاريخي.

الكلمات المفتاحية:

النص الديني، القرآن الكريم، التأويل المعاصر، التفسير القرآني، القراءات الحديثة.

ABSTRACT:

Questions concerning the understanding of religion are renewed in every historical period according to intellectual and epistemological transformations. Within this framework, Malek Chebel's project offers a contemporary approach to reading the religious text by examining the nature of the Qur'anic text and the mechanisms of its interpretation. Chebel views the Qur'an as a text rich in layers of meaning, combining explicit meanings with symbolic dimensions, making it open to renewed interpretations. He employs modern approaches to uncover its cultural and human dimensions, particularly by considering Qur'anic narratives as symbolic structures that go beyond their direct historical function. The article highlights the importance of tafsir in Chebel's project, as he considers

it a valuable epistemological and methodological resource for understanding the Qur'an, emphasizing the contributions of exegetes, especially Imam al-Tabari, while rejecting interpretations detached from the linguistic and historical foundations of the text. The study concludes that the uniqueness of Malek Chebel's project lies in reconciling modern approaches with the Islamic exegetical heritage, presenting a contemporary reading of the religious text based on the interaction between the Qur'an, interpretation, and human reason.

Keywords:

Religious text, The Holy Qur'an, Contemporary interpretation, Qur'anic exegesis, Modernist readings.

* المؤلف المراسل: د. بونمورة جعفر و د. مرمي سهام

مقدمة

يعد النص الديني وفي مقدمته القرآن الكريم محورا أساسيا في الفكر الإسلامي إذ شكل منذ نزوله المرجعية العليا التي استندت إليها مختلف العلوم الشرعية والفكرية كما ظل موضوعا للتفسير والتأويل والاجتهاد عبر العصور. وقد أسهم هذا الثراء في ظهور مدارس تفسيرية متعددة سعت إلى الكشف عن دلالات النص وفق مناهج معرفية متنوعة، مع المحافظة على خصوصيته بوصفه وحيا إلهيا. غير أن التحولات الفكرية التي عرفها العصر الحديث وما صاحبها من بروز مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، أفرزت قراءات جديدة للقرآن الكريم عرفت بالقراءات الحداثية والتي دعت إلى إعادة النظر في المناهج التفسيرية الموروثة مستفيدة من أدوات اللسانيات، والأنثروبولوجيا، وتحليل الخطاب، وغيرها من المقاربات الحديثة. وفي هذا السياق يبرز مالك شبل بوصفه أحد أبرز المفكرين الذين سعوا إلى تقديم قراءة معاصرة للنص القرآني، تجمع بين الانفتاح على المناهج الحديثة والوعي بأهمية التراث التفسيري الإسلامي. فقد انطلق من اعتبار القرآن نص غني بطبقاته الدلالية منفتح على التأويل دون أن يدعو إلى القطيعة مع جهود المفسرين الأوائل، إنما جعل منها أساس معرفي لإعادة بناء الفهم في ضوء قضايا العصر، وهو ما يمنح مشروعه التأويلي خصوصية تميزه عن عدد من القراءات الحداثية التي اتجهت إلى تجاوز المرجعية التفسيرية التقليدية. وانطلاقا من ذلك تثير هذه

الدراسة المشكلة الآتية: إلى أي مدى نجح مالك شبل في بناء قراءة حداثة للنص الديني تجمع بين توظيف المناهج التأويلية المعاصرة والاستناد إلى التراث التفسيري الإسلامي؟

وللإجابة عن هذه المشكلة سيتم دراسة الموضوع من خلال بيان مفهوم النص الديني والقراءات الحداثية المعاصرة ثم عرض التصور التأويلي للنص القرآني عند مالك شبل وبيان مكانة التفسير في مشروعه قبل الوقوف عند موقفه من التأويل القائم على الرأي المجرد وأثر ذلك في بناء قراءته الحداثية.

أولاً: مفهوم النص الديني والقراءات الحداثية المعاصرة.

قد يثار تساؤل مشروع حول الدافع الكامن وراء استمرار البحث في مفهوم النص سواء في إطار علوم القرآن أو في حقل الدلالة اللغوية أو حتى في مجالات معرفية أخرى كالدراسات الدينية والنقد الأدبي والبلاغة. غير أن أهمية هذا المسعى لا تكمن في تتبع المفهوم ذاته فحسب وإنما في كونه مدخلا لفهم الأسس التي تشكلت عليها الثقافة العربية الإسلامية وآليات اشتغالها عبر تاريخها. فاختلاف الحقول العلمية التي يدرس فيها النص لا يغير من الغاية المشتركة التي تسعى إليها الدراسات الإنسانية والاجتماعية والمتمثلة في تحليل البنية الثقافية للمجتمع واستجلاء مكوناتها التاريخية والمعرفية بما يفضي إلى قراءة أكثر وعياً لواقعها المعاصر. وإذا كانت الثقافة تمثل الوعاء الذي يحفظ الخبرة الجمعية للأمة، فإن هذه الخبرة تتجسد أساساً في منظومة من النصوص التي تؤطر القيم وتنظم الأعراف وتحدد ضوابط السلوك كما ترسم الحدود الفاصلة بين المقبول والمرفوض. (نصر حامد أبو زيد 1995، ص 145) وفي ضوء المكانة المحورية التي يحتلها النص الديني داخل الثقافة العربية الإسلامية، باعتباره المرجعية الأساسية لإنتاج المعنى وتوجيه المعرفة فإن دراسة مفهوم النص تتجاوز حدود البحث الاصطلاحي لتصبح وسيلة للكشف عن الكيفية التي تشكلت بها أنساق التفكير وآليات إنتاج المعرفة في هذه الثقافة. فقد أسهم النص الديني في تأسيس غالبية الخطابات التي شكلت الذاكرة الثقافية، وأصبح المنطلق الذي استندت إليه مختلف أشكال الإنتاجيات الفكرية. ومن هذا المنظور فإن البحث في مفهوم

النص يسعى أيضا إلى استكشاف البنية الثقافية والمعرفية التي أفرزته والكشف عن المرجعيات الفكرية التي أسهمت في بناء التصورات السائدة داخل الثقافة العربية الإسلامية (نصر حامد أبو زيد، 1995، ص 145) ويقوم مفهوم النص الديني في الإسلام على كونه وحي إلهي يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية وهما المصدران الأصليون للتشريع الإسلامي، ويستمدان حجتهما من مصدرهما الرباني. ويتميز هذا النص بالثبوت والحفظ فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر، الآية 9) مما أكسبه قطعية الثبوت وجعله المرجع الأعلى للتشريع والهداية في جميع الأزمنة. وتستمد السنة النبوية مكانتها التشريعية من اتصالها بالوحي فهي مبينة للقرآن ومفصلة لأحكامه، ومصدر أصيل من مصادر التشريع الإسلامي. لقوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فهي تشارك القرآن في الحجية. (لكن يرى بعض المفكرين أن السنة ليست نصا دينيا وأن النص الديني يقتصر على القرآن الكريم وحده باعتباره كلام الله المنزل) ومن ثم فإن النص الديني يحتل منزلة فريدة بين سائر النصوص إذ لا يستمد سلطته من الاعتبارات التاريخية أو البشرية، وإنما من مصدره الإلهي، الأمر الذي يجعله نصا ثابتا في أصوله، شاملاً في دلالاته صالحا للهداية والتشريع بما يضمن استمرارية مرجعيته وقدرته على توجيه حياة الإنسان في مختلف العصور والبيئات. (خالد بن عبد العزيز السيف، 2015، ص 17-18) فالنص الديني هو الخطاب الإلهي المنزل الموجه إلى الإنسان في كل زمان ومكان ولذلك تتسم دلالاته بالثبات والعموم، ولا تخضع للمتغيرات التاريخية أو المكانية لأن مصدرها الوحي الإلهي لا الواقع البشري. ورغم نزوله في سياق تاريخي محدد فإن معانيه تبقى صالحة للهداية والإرشاد عبر مختلف العصور. (خالد بن عبد العزيز السيف، 2015، ص 5) يشير هذا الطرح إلى أن النص الديني يتميز بخصوصية مصدره، إذ ينظر إليه بوصفه خطاب إلهي صادر عن الوحي، وليس نتاج للتجربة الإنسانية أو للظروف الاجتماعية والثقافية. ومن ثم فإن سلطته المعرفية والتشريعية تستند إلى مرجعيته الإلهية الأمر الذي يمنحه طابع الثبات في المبادئ والقيم الأساسية التي يحملها. كما أن توجيه الخطاب إلى الإنسان بصفة عامة يجعله يتجاوز حدود الزمان والمكان، بحيث لا تنحصر دلالاته في البيئة التي نزل فيها وإنما تمتد

لتشمل مختلف المجتمعات والأزمنة. وفي هذا الإطار يميز الباحثون بين سياق النزول الذي يفسر الملابس التاريخية المصاحبة لظهور النص وبين عالمية الرسالة التي تجعل مقاصده وقيمه قابلة للاستمرار والتطبيق في كل عصر. ولذلك فإن ارتباط النص الديني بحدث تاريخي معين لا يعني اقتصار معناه على ذلك الحدث بل يظل محتفظاً بوظيفته في الهداية والتوجيه، مع إمكانية تجدد فهمه واستنباط دلالاته في ضوء القضايا والمستجدات التي تطرأ على حياة الإنسان، شريطة أن يتم ذلك وفق المناهج العلمية المعتمدة في تفسير النصوص الدينية. كما يتميز النص الديني بانسجامه مع العقل السليم إذ لم تكن معارضة المخاطبين الأوائل له بسبب مخالفته للعقل وإنما نتيجة تمسكهم بالموروثات والعادات السائدة. ويستند فهم النص الديني إلى قواعد اللغة العربية وأصول الاستدلال التي تضبط دلالاته مما يجعل سلامة تفسيره رهينة باتباع المنهج اللغوي والأصولي الصحيح. (خالد بن عبد العزيز السيف، 2015، ص 6) كما أن النص الديني لا يقوم على مناقضة العقل، إنما يخاطب الإنسان بوصفه كائن عاقل قادر على الفهم والتدبر والاستدلال. ولذلك فإن رفض بعض المخاطبين الأوائل لرسالته لم يكن نابعا من تعارضها مع المبادئ العقلية السليمة، وإنما ارتبط بعوامل اجتماعية وثقافية، مثل التمسك بالمعتقدات الموروثة والعادات السائدة والخوف من التغيير الذي جاءت به الرسالة. كما أن فهم النص الديني لا يتم بصورة اعتباطية أو وفق الأهواء الشخصية وإنما يستند إلى ضوابط علمية تتمثل في قواعد اللغة العربية بما تتضمنه من دراسة للألفاظ والتراكيب والأساليب وإلى أصول الاستدلال التي تحدد كيفية استنباط المعاني والأحكام من النص ومن ثم فإن صحة التفسير تتوقف على الالتزام بالمنهج اللغوي والأصولي، الذي يراعي سياق النص ودلالاته ومقاصده ويجنب الوقوع في التأويلات غير المنضبطة أو الفهم المجتزأ. فهذه الخصائص التي يتميز بها النص الديني، والمتمثلة في الشمولية والإطلاق والاتساق العقلي، لا تنسب إليه بدافع المبالغة أو التقديس، وإنما تستند إلى طبيعة هذا النص وما يفرضه من قوة دلالية وحجية وهو ما تؤكد مجموعة واسعة ومتنوعة من الأدلة التي لا يتسع المقام لعرضها.

على الرغم من أن النص الديني يعد ذا مصدر إلهي فإنه يظل قابلاً للتحليل والتأويل وذلك لأنه ورد في صيغة خطاب لغوي وصيغ بلغة عربية تخضع لقواعد اللسانيات وأساليب البيان. ومن ثم فإن طبيعته اللغوية تجعله مجالاً للاجتهاد وتعدد القراءات والتفسيرات وفقاً للمناهج العلمية والسياقات التاريخية واللغوية. (أحمد رحمانى، 2009، ص79)

وعلى هذا الأساس ظهرت في الفكر المعاصر اتجاهات نقدية تسعى إلى توظيف هذه الإمكانيات التأويلية في قراءة القرآن الكريم مستفيدة من المناهج الحديثة في دراسة النصوص والخطابات. كما تشير أيضاً إلى مجموعة من المقاربات الفكرية والمنهجية التي تسعى إلى إعادة قراءة النص القرآني في ضوء المناهج الحديثة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مع تجاوز أنماط التفسير التقليدية التي رسخها الفقهاء والمفسرون عبر التاريخ. ويمكن إجمال أبرز خصائص هذه القراءات فيما يأتي:

1. القطيعة مع القراءة التراثية والتحرر من القيود الدوغمائية:

تنطلق القراءات الحديثة من نقد القراءة الكلاسيكية للقرآن الكريم معتبرة أنها نتاج سياقات تاريخية وثقافية محددة، ومن ثم تدعو إلى تجاوزها وبناء قراءات جديدة تستجيب لإشكالات العصر، وهو ما يجعلها تمثل في نظر أصحابه ثورة معرفية على مناهج التفسير التقليدية. كما تدعو هذه القراءات إلى تجاوز ما تصفه بالسياجات الدوغمائية والأرثوذكسية التي أحاط بها رجال الدين النص القرآني وترفض احتكار تأويله من قبل المؤسسة الدينية ساعية إلى التعامل مع النص بوصفه مجال مفتوح للاجتهاد، بعيداً عن القيود التي تفرضها سلطة التفسير التقليدي.

2. النظر إلى القرآن باعتباره نص لغوي وتاريخي:

تتعامل القراءات الحديثة مع القرآن الكريم باعتباره نص لغوي وخطاب ثقافي وتاريخي، يخضع للدراسة والتحليل بالأدوات اللسانية والإنسانية نفسها التي تُطبق على بقية النصوص. وفي هذا السياق، يصف محمد أركون القرآن بأنه حادث لغوي واجتماعي، (محمد أركون، 2005، ص11) بينما يرى نصر حامد أبو زيد أنه نص ثقافي تشكل داخل

الواقع العربي وأن دراسته علميا تقتضي الانطلاق من بنيته اللغوية وسياقه الثقافي والاجتماعي باعتبار أن المرسل الإلهي يظل خارج نطاق البحث العلمي. (نصر حامد أبو زيد، 1995، ص 11)

3. إدراج القرآن ضمن الظاهرة الدينية العامة:

تسعى هذه القراءات إلى دراسة القرآن في إطار الظاهرة الدينية المقارنة فتتعامل معه بوصفه نصا دينيا إلى جانب سائر النصوص الدينية دون التركيز على خصوصيته أو تميزه. وقد انتقد طه عبد الرحمن هذا التوجه معتبرا أنه ينتهي إلى مساواة القرآن بغيره من النصوص الدينية سواء كانت توحيدية أم غير توحيدية. (طه عبد الرحمن، 2008، ص 121)

4. إحياء التراث العقلي في الفكر الإسلامي:

تميل القراءات الحداثية إلى إعادة الاعتبار لمناهج المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة ولا سيما المدرسة المعتزلية، بوصفها نموذجا للعقلانية في التراث الإسلامي، في مقابل نقد المنهج الفقهي التقليدي. وفي هذا الإطار أشاد محمد أركون بالتجربة الاعتزالية وعدّها مشروع فكري واعدّا أجهض بفعل هيمنة الخطاب الرسمي كما أبرز محمد عابد الجابري الإمكانيات المنهجية التي تميز بها الفكر المعتزلي واعتبره نموذجا للتفكير العقلاني الذي يجمع بين الشرع والعقل. (علي حرب، 2008، ص 110)

5. الاعتماد على مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية:

تعتمد القراءات الحداثية على مناهج معاصرة في تحليل النصوص، مستفيدة من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات والسيميائيات وتحليل الخطاب والبنوية وما بعد البنوية وغيرها من المناهج الحديثة بهدف تقديم قراءة جديدة للنص القرآني تتجاوز المناهج التفسيرية الموروثة.

كما نلاحظ فإن هذه الخصائص على اختلافها تكشف أن القراءات الحدائية تتقاطع في اعتمادها مناهج العلوم الإنسانية الحديثة في مقارنة النص القرآني والسعي إلى إعادة قراءته خارج الأطر التفسيرية التقليدية مع التركيز على أبعاده اللغوية والتاريخية والثقافية.

ثانيا: القرآن كنص مفتوح في ضوء القراءة التأويلية والرمزية عند مالك شبل

ومن بين هذه القراءات الحدائية المعاصرة للنص القرآني نجد قراءة المفكر مالك شبل التي تنظر إلى القرآن بوصفه نصا مركبا تتداخل فيه مستويات متعددة من الفهم والتأويل وانطلاقا من هذا التصور يؤكد شبل أن مقارنة القرآن لا يمكن أن تتم بصورة سطحية أو من خلال الاكتفاء بقراءته الظاهرية إذ إن الولوج إلى معانيه يظل مشروطاً بدراسة متعمقة تأخذ بعين الاعتبار طبيعة النص وثراء دلالاته. فالقرآن من جهة يقدم معاني واضحة ومباشرة يمكن إدراك جانب كبير منها عبر التلاوة والقراءة المتأنية لكنه من جهة أخرى، يفتح على مستويات أعمق من الدلالات والمعاني الخفية، مما يجعله نصا متعدد الأبعاد وقابلا لقراءات وتأويلات متنوعة. وقد سعى المتصوفة إلى الكشف عن هذه المستويات الباطنية، فذهبوا إلى وجود معانٍ رمزية متعددة لا يدركها إلا أهل المعرفة والتجربة الروحية. وفي المقابل طور القراء علوما وتقنيات خاصة بأداء النص القرآني، تتنوع بين التجويد والترتيل والإنشاد والقراءة الخافتة كما في سياقات الذكر والتعبّد. ومع ذلك يبقى القرآن بالنسبة إلى المتلقي مجالا مفتوحا للتأمل والتفسير ومصدرا غنيا بالرموز والدلالات التي لا تنفذ معانيها. (مالك شبل، 2000، ص 4) ويضيف مالك شبل موضحا أن علماء الدلالة المسلمون قد تمكنوا من إبراز طبيعة الغموض الكامن في النص القرآني فالقرآن وإن كان نص بين يمكن فهم مقاصده العامة وإدراك معانيه الأساسية، فإنه لا يقدم دلالاته بصورة مباشرة ونهائية. يتميز بتعدد مستوياته الدلالية وتنوع أبعاده التأويلية مما يجعله نصا غنيا بالمعاني ومتعدد الوجوه يستعصي على كل محاولات الحصر والتحديد. فالمعنى القرآني في جوهره معنى مفتوح ومتجدد يسمح لكل قارئ بأن يجد فيه أفقا من الدلالة يتوافق مع أسئلته وتجربته ومستوى فهمه. المقصود هنا إن تعدد دلالات

القرآن لا يعني غموضه إنما يعكس عمق بنيته المعنوية فهو نص يجمع بين الوضوح الظاهري والثراء الداخلي مما يجعله قابلاً لفهم متجدد يتجاوز حدود القراءة الواحدة.

ويحدد مالك شبل ملامح مشروعه القرآني الحدائي من خلال اعتماد مداخل جديدة تقوم على إعادة بناء المفاهيم بما يتناسب مع الثراء الثقافي للنص القرآني. لذلك يركز على أبعاده الأنثروبولوجية، معتبراً أن فهم معانيه يقتضي توظيف أدوات معرفية متنوعة تستجيب لطبيعة النص ومستوياته الدلالية. وفي هذا السياق يقترح شبل اعتماد نظام قرآني للقرآن يقوم على مفاهيم رمزية وميتولوجية مستفيدة من مناهج العلوم الإنسانية الحديثة خاصة علم الإنسان وعلم الدلالة والتاريخ بهدف توسيع آفاق التأويل وفتح المجال أمام مقاربات جديدة لفهم النص القرآني. (مالك شبل، 2000، ص 5) فهو يقترح دراسة النص الديني بنقل فعل القراءة من استنطاق المعنى الظاهر إلى مساءلة البنى الرمزية والثقافية العميقة للنص عبر توظيف أدوات الفكر الإنساني المعاصر لتوسيع أفق التأويل. وانطلاقاً من هذا التصور تتجه قراءته إلى استكشاف البعد التخيلي والسرد في القرآن من خلال التعامل مع القصص الواردة في النص الديني والحديث النبوي باعتبارها بنيات رمزية تحمل دلالات تتجاوز بعدها الحكائي المباشر. لذلك يسعى شبل إلى تجاوز المقاربات التقليدية التي حصرت القصص الإسلامية في وظيفتها الوعظية أو التاريخية، ليعيد قراءتها بوصفها سرديات تحتاج إلى تحليل بنيته التخيلية والكشف عن أبعادها الثقافية والإنسانية. ومن هذا المنطلق يعتمد على مرجعية حدائية تأويلية تستثمر مناهج العلوم الإنسانية لفهم العلاقات بين الشخصيات والأحداث داخل هذه الحكايات كما يظهر في دراسته لمجموعة من النماذج السردية ضمن كتابه *Treize contes du Coran et de l'Islam*. وتكشف هذه المقاربة عن رغبة في إعادة بناء علاقة القارئ بالنص الديني، باعتباره فضاء مفتوحاً تتقاطع فيه الرموز والأسئلة الإنسانية الكبرى فالسرد القرآني وفق هذا المنظور لا يختزل في حكاية مكتملة المعنى إنما يتحول إلى بنية دلالية عميقة تستدعي التأويل المستمر (Malek Chebel, 2007, p18) يتضح من خلال قراءة مالك شبل للقرآن أنه نص غني بطبقاته الدلالية تجمع بين البعد الظاهر والمستويات الرمزية

العميقة لذلك يرفض اختزاله في تفسير واحد أو معنى نهائي. ويرى أن فهمه يتطلب توظيف مناهج حديثة من العلوم الإنسانية للكشف عن أبعاده الثقافية والأنثروبولوجية والسردية. ومن خلال اهتمامه بالقصص القرآني يعيد شبل النظر إليها باعتبارها بنيات رمزية تحمل دلالات إنسانية تتجاوز وظيفتها الوعظية. وهكذا يسعى مشروعه إلى تقديم قراءة تأويلية حديثة تجعل النص القرآني مجال مفتوح للتفاعل بين المعنى والقارئ، بما يسمح باستمرار إنتاج الدلالة.

ثالثاً: مكانة التفسير ورفض التأويل القائم على الرأي المجرد عند مالك شبل.

يرى مالك شبل أن التعامل مع القرآن لا يمكن أن يقوم على القراءة الشخصية المنفصلة عن التاريخ العلمي للنص، لأن فهم الآيات لا يتحدد فقط من خلال المعنى الظاهر للألفاظ إنما يرتبط كذلك بالسياقات التاريخية والاجتماعية واللغوية التي نزلت فيها. ومن ثم فإن القارئ المعاصر يحتاج إلى الاستفادة من جهود المفسرين الذين شكلوا حلقة وصل بين النص القرآني الأول وبين الأجيال اللاحقة من المتلقين. فالقراءة الفردية مهما بلغت من أهمية تبقى محدودة إذا لم تستند إلى المعرفة التي راكمها علماء التفسير عبر القرون فهؤلاء لم يكونوا مجرد ناقلين للمعاني، إنما مارسوا عملية فكرية تقوم على دراسة أسباب النزول وتحليل اللغة العربية وجمع الروايات المرتبطة بالآيات مما جعل تفاسيرهم أدوات أساسية لفهم النص ضمن بيئته الأصلية. لهذا نجد مالك شبل يقول: "وعلى الرغم من أن صحابة النبي ﷺ كانوا الأقرب إلى عصر نزول القرآن وقد أدركوا سياق آياته وظروفها فإن فهمنا نحن المعاصرين لكثير من هذه الآيات يظل مرتبطاً بالرجوع إلى جهود كبار المفسرين الذين نقلوا إلينا مناهج التأويل وقواعد الفهم. فكثير من الأحكام القرآنية ارتبطت بأحداث ووقائع محددة كما هو الحال في آيات المواريث التي جاءت في سياق اجتماعي كانت فيه حقوق النساء محل سؤال فكان نزول الآيات مؤسس لمبدأ إعطاء المرأة نصيب شرعي من الميراث. ومن أبرز هؤلاء المفسرين الإمام الطبري (سنة 839 م _ 923 م) الذي يعد من أعظم علماء التفسير لما جمعه في كتابه الشهير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» من روايات لغوية وتاريخية وفقهية". (Malek Chebel , 2017, p18)

تكشف هذه الفكرة أن مالك شبل ينظر إلى التفسير باعتباره ذاكرة معرفية تحفظ العلاقة بين النص القرآني وسياقه التاريخي. فالقرآن رغم كونه نص مفتوح على قراءات متعددة لا يمكن فهمه بمعزل عن الطبقات العلمية التي أحاطت به منذ القرون الأولى. ومن هنا فإن الرجوع إلى المفسرين لا يعني تبني جميع اجتهاداتهم بشكل جامد وإنما يعني الاعتراف بأن فهم النص يحتاج إلى أدوات ومناهج تشكلت داخل التقليد الإسلامي نفسه. وتبرز أهمية الإمام الطبري في هذا السياق أنه يمثل نموذجاً للقراءة التي تجمع بين النقل والتحليل فقد حاول من خلال تفسيره استحضار أقوال الصحابة والتابعين، وربط الآيات بالمعاني اللغوية والوقائع التاريخية والأحكام الفقهية. لذلك يصبح تفسيره عند مالك شبل مثالا على ضرورة وجود وسيط علمي بين النص والقارئ يمنع إسقاط التصورات الحديثة المباشرة على القرآن دون مراعاة ظروف ظهوره. وبهذا المعنى فإن موقف مالك شبل لا يقوم على رفض القراءة المعاصرة، وإنما على دعوتها إلى الانطلاق من أساس معرفي متين فالحدثاء في فهم النص لا تبدأ بإلغاء التراث التفسيري إنما بالحوار معه وفهم آلياته وحدوده. فالمفسرون الأوائل يمثلون مرحلة ضرورية لفهم المعنى الأول للآيات بينما يظل دور القارئ المعاصر هو إعادة التفكير في دلالاتها ضمن واقعه مع الحفاظ على الصلة بسياقها الأصلي.

ويرى مالك شبل أن من أهم الضوابط التي ينبغي أن تحكم عملية التأويل تجنب إخضاع النص القرآني للآراء والانطباعات الشخصية. فالتأويل في نظره ليس ممارسة حرة يفرض فيها القارئ تصوره الخاص على النص وإنما هو عملية تستند إلى قواعد اللغة والمعرفة بالسياق التاريخي والتراث التفسيري الذي تشكل عبر القرون ولهذا فإن أي قراءة تنفصل عن هذه الأسس تتحول إلى إسقاط للذات على النص بدل أن تكون محاولة لاكتشاف دلالاته. ويستحضر شبل في هذا السياق موقف الإمام الطبري الذي كان من أشد المدافعين عن المنهج العلمي في التفسير إذ رفض أن يكون الرأي الشخصي أساساً لفهم القرآن وعد صحة المنهج مقدمة على صحة النتيجة. فالمفسر قد يوافق المعنى الصحيح اتفاقاً لكنه يظل مخطئاً إذا وصل إليه من غير اعتماد على الأدلة اللغوية والنقلية وأصول التفسير. (Malek Chebel, 2017, p54) ويكشف

هذا الموقف عن إدراك مبكر لخطورة تحويل التأويل إلى اجتهاد فردي غير منضبط لأن ذلك يفتح المجال لتعدد القراءات التي تستمد مشروعيتها من أهواء أصحابها لا من النص نفسه . ومن هذا المنطلق يفسر مالك شبل المكانة التي احتلها تفسير الطبري في التراث الإسلامي فلم يكتسب قيمته بسبب ضخامته أو شهرته فحسب وإنما لأن صاحبه أرسى نموذج منهجي يقوم على جمع الروايات ومناقشتها وترجيحها وفق معايير علمية واضحة ولهذا ظل تفسيره مرجع أساسي اعتمد عليه المفسرون في العصور اللاحقة.

كما يبين شبل أن رفض التأويل القائم على الرأي المجرد لم يكن موقفا خاصا بالطبري وحده إنما أصبح سمة عامة في التراث التفسيري الإسلامي فقد واصل كبار المفسرين مثل الزمخشري والفخر الرازي والبيضاوي والقرطبي وابن كثير تطوير مناهج تفسيرية مختلفة إلا أنهم اشتركوا في الانطلاق من أصول معرفية راسخة سواء من خلال التحليل اللغوي أو الاستدلال العقلي أو الاستناد إلى الرواية والأثر وهو ما أسهم في بناء تقليد علمي يحول دون اختزال التأويل في الرأي الشخصي. بذلك يؤكد مالك شبل أن التجديد في فهم القرآن لا يعني تحرير التأويل من كل الضوابط بل يقتضي المحافظة على المنهج العلمي الذي أرسته المدرسة التفسيرية الإسلامية. فالتأويل المشروع هو الذي يجدد قراءة النص انطلاقا من أسسه المعرفية أما التأويل الذي يقوم على الرأي المجرد فيفقد صلته بالنص ويصبح انعكاس لتصورات القارئ أكثر مما يكون تعبيرا عن دلالات القرآن.

ولا يقتصر استدلال مالك شبل على المفسرين الأوائل إنما يمتد ليشمل مختلف المراحل التي مر بها علم التفسير وهو ما يعكس اقتناعه بأن هذا العلم ظل في حالة تطور مستمر دون أن يفقد أصوله المنهجية. فظهور تفاسير جديدة في عصور مختلفة لم يكن تعبيرا عن القطيعة مع التراث وإنما كان استجابة لحاجات علمية وفكرية متجددة مع المحافظة على القواعد التي تضبط فهم النص القرآني. وفي هذا الإطار يبرز تفسير الجلالين الذي وضعه جلال الدين المحلي ثم أكمله جلال الدين السيوطي باعتباره نموذج للتفسير الذي امتاز بالاختصار والوضوح كما يحتل "مجمع البيان" للطبرسي مكانة بارزة في التراث التفسيري الشيعي حيث جمع بين التفسير

اللغوي والفقهي والكلامي. ويكشف هذا التنوع في نظر مالك شبل عن أن المدارس التفسيرية، على اختلاف توجهاتها كانت تتحرك داخل إطار علمي مشترك هدفه البحث عن المعنى الأقرب إلى مقاصد النص لا إطلاق العنان للتأويلات الذاتية ويمتد هذا المسار إلى العصر الحديث مع ظهور اتجاهات إصلاحية كان من أبرزها تفسير "المنار" الذي ارتبط بمحمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا. وتمثل أهمية هذا التفسير في محاولته التوفيق بين الوفاء لأصول التفسير الموروثة والانفتاح على الإشكالات التي فرضها العصر الحديث (Malek Chebel, 2017, p55) وهو ما ينسجم مع التصور الذي يدافع عنه مالك شبل، والقائم على أن تجديد قراءة القرآن لا يتحقق بإلغاء التراث وإنما بإعادة توظيفه في ضوء الأسئلة الجديدة. ومن ثم فإن تعدد التفاسير واختلاف مناهجها لا يعده مالك شبل دليلا على فوضى التأويل، إنما شاهدا على حيوية الفكر الإسلامي وقدرته على إنتاج قراءات متنوعة داخل حدود المنهج العلمي. فالمفسرون، على اختلاف عصورهم وانتماءاتهم ظلوا يجمعون بين احترام النص والالتزام بأدوات تفسيره وهو ما يجعل التراث التفسيري رصيذا معرفيا لا غنى عنه لكل مشروع يسعى إلى فهم القرآن أو تجديد قراءته بعيدا عن التأويل القائم على الرأي المجرد.

وفقا لمالك شبل إن أي فهم عقلاني للقرآن لا يمكن أن ينفصل عن المسار التاريخي الطويل الذي تشكل عبر قرون من اجتهادات العلماء وتجارب مئات الملايين من المؤمنين فالإسلام ليس مجرد منظومة نظرية أو لاهوت خاص بالنخب العلمية، إنما هو دين عملي يقوم على العبادات والشعائر والممارسة اليومية. ومع ذلك فإن الحفاظ على حيوية هذا الفهم يتطلب استمرار الحوار بين النص والتراث والعقل الإنساني حتى لا يتحول الفكر الديني إلى مجرد جمود مغلق ليبقى مجالا للاجتهاد والتأمل المستند إلى العلم والمعرفة. (Malek Chebel, 2017, p55) يتبين من خلال مقارنة التأويل والتفسير عند مالك شبل أنه يختلف عن كثير من المفكرين المعاصرين الذين بحثوا في قراءة النص الديني إذ لم يجعل مشروعه التأويلي قائما على القطيعة مع التراث التفسيري أو تجاوز جهود العلماء الأوائل كما فعلت بعض الاتجاهات التي رأت في التراث عائقا أمام التجديد. فقد اعتبر أن المفسرين القدامى أسهموا في بناء أدوات علمية

ومنهجية لا غنى عنها لفهم القرآن وأن تفاسيرهم تمثل الذاكرة التاريخية والمعرفية للنص بما تحمله من معارف لغوية وتاريخية وفقهية وسياقية. غير أن هذا التقدير للتراث لم يدفعه إلى تبني اجتهاداته بصورة جامدة إنما سعى إلى إعادة توظيفها في إطار قراءة عقلانية منفتحة تستجيب لتحولات العصر وأسئلته الجديدة. ومن ثم فإن ما يحسب لمالك شبل هو نجاحه في الجمع بين الوفاء للأصول التفسيرية والانفتاح على متطلبات الحداثة فجعل من التراث نقطة انطلاق لبناء تأويل معاصر لا موضوع للإلغاء أو التجاوز. وبذلك يقدم نموذج تأويلي يقوم على الحوار بين تفسير القدماء والفهم الجدد ويؤكد أن تجديد فهم القرآن لا يتحقق بالقفز على منجزات العلماء وإنما بالانطلاق منها وتطويرها بما ينسجم مع مقتضيات الراهن .

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن قراءة مالك شبل للنص الديني تمثل محاولة لإعادة صياغة العلاقة بين القرآن والقارئ المعاصر بعيدا عن ثنائية الرفض والتمجيد فهي لا تنطلق من اعتبار التراث التفسيري عائقا أمام التجديد، ولا من الاكتفاء بالمنهاج الحديثة بمعزل عن خصوصية النص القرآني فقد سعى شبل إلى بناء مقاربة تجعل من التأويل فعلا معرفيا يقوم على استحضار تعدد مستويات النص، والاستفادة من إمكانات العلوم الإنسانية مع الحفاظ على الوعي بالدور الذي أداه المفسرون في تشكيل أدوات الفهم والتفسير وتكمن خصوصية مشروعه في أنه لم يتعامل مع القرآن باعتباره نص مغلق على معنى واحد كما لم يختزله في أبعاده التاريخية أو اللغوية فقط إنما نظر إليه بوصفه نص حي تتفاعل فيه الدلالات والرموز والأسئلة الإنسانية المتجددة. غير أن هذا الانفتاح التأويلي لم يكن عنده دعوة إلى التحرر المطلق من الضوابط، إنما ظل مرتبطا بضرورة امتلاك أدوات علمية تمنع تحويل القراءة إلى إسقاط ذاتي على النص وعليه فإن قيمة مشروع مالك شبل لا تتمثل فقط في تبنيه أدوات حداثية في قراءة القرآن وإنما في محاولته بناء جسر بين منجزات الفكر المعاصر وذاكرة التفسير الإسلامي. فقد جعل من أعمال العلماء السابقين أساسا للحوار والتطوير لا مرحلة ينبغي تجاوزها وهو ما يمنح قراءته خصوصيتها داخل المشهد الحداثي المعاصر. ومن هنا يظهر

أن تجديد قراءة النص الديني في نظره لا يتحقق بإحداث قطيعة مع الماضي وإنما بإعادة استثماره ضمن أفق جديد يسمح للنص بالحضور في الواقع المعاصر مع الاحتفاظ بعمقه التاريخي والمعرفي.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. أحمد رحمان، قضية قراءة النص القرآني، عين بني مظهر المحروسة، مصر، 2009.
3. علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة، 2008.
4. طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثامنة، 2008.
5. خالد بن عبد العزيز السيف، ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر: دراسة نقدية إسلامية، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، السعودية، الطبعة الثالثة، 2015.
6. مالك شبل، معجم الرموز الإسلامية: شعائر، تصوف وحضارة، ترجمة أنطوان إ. الهاشم، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2000.
7. محمد أركون، من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 2005.
8. نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة: الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1995.
9. Malek Chebel, 13 contes du Coran et de l'Islam, Flammarion Jeunesse, 2007.
10. Malek Chebel, Les 100 mots du Coran, Paris, Presses Universitaires de France (PUF), coll. « Que sais-je ? », 2017.

